(١)

ابن الفوطى

المطبوع باسم الحوادث الجامعة ليس لابن الفوطي

الدكتور مصطفى جواد

١٢ — الحوادث الجامعة والتجارب النافعة الواقعة في المائة السابعة ، هكذا أسماه ابن رجب ، كما نقلنا من كتابه ذيل طبقات الحنابلة سابقاً ، قال : « وذكر غير الذهبي أنه جمع الوفيات من سنة ستمائة سماه الحوادث الجامعة والتجارب النافعة الواقعة في المائة السابعة وهذا هو الذي أشار اليه الذهبي » يعني قول الذهبي ـ وقد نقله قبلاً ـ : « وكتاب حوادث المائة السابعة والى أن مات » . وفي الحق أن حصره بالمائة السابعة وقصره عليها يدفع قول الذهبي « والى أن مات » . والذي استمر عليه الى أن مات هو « التاريخ على الحوادث » كما ذكرنا من قبل .

وسماه مؤلف كشف الظنون « الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة » قال : « لكمال الدين عبدالرزاق بن أحمد المعروف بابن الفوطي البغدادي المتوفى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة » . وقال في مادة التاريخ : « تاريخ ابن الفوطي متعدد كالذيل على الجامع المختصر لشيخه ابن الساعي ، والحوادث الجامعة في الوفيات ومجمع الآداب » وكرر ذكر الحوادث الجامعة في ثبت كتب التاريخ المجرد .

وقد وجدنا تاريخاً مخروم الأول مبدأ الباقي منه سنة ٦٢٦ ، ومنتهاه سنة « سبعمائة » من الهجرة في خزانة كتب الأب أنستاس ماري الكرملي وهي خزانة الآباء النصارى الكرمليين

(١) نشرة المقالة المنشورة في هذه المجلة « مج ٩ ص ٤٣ ـ ١٦٤ » .

ببغداد التي أهدي اكثر مخطوطاتها العربية الى المتحفة العراقية المعروفة بالمتحف العراقي وهو مخطوط بخط عصري حديث تغلب عليه الركاكة ، ثم علمنا أن نسخة الأصل هي في خزانة كتب الأستاذ المحقق أحمد باشا تيمور ـ وكان إذا ذاك حياً ـ وأنه أمر بنسخ نسخة منه فأهداها الى الأب أنستاس المذكور ، فانتسخت لنفسي نسخة على المخطوطة التي في خزانة الآباء الكرمليين ، وكلمت أحد الكتبيين وهو نعمان الأعظمي الكتبي في أن ينفق على طبعه وأقوم على إخراجه مع تصحيحه والتعليق عليه ، فوافق على ذلك، وكان الأستاذ الأديب أحمد حامد آل الصراف قد انتسخ لنفسه نسخةً فأهدى اليّ نسخته ، وإذ كانت نسختي قد علقت عليها وأضفت اليها في حواشيها فوائد تاريخية قدمت نسخة الصراف للمطبعة ، وكان ناسخها قد تخطى أسطراً من الكتاب لحاجة في صدره، وحسبت أن النسخة المذكورة كاملة فلم أستوف المقابلة بين مخطوطتي والمطبوع فنقصت النسخة المطبوعة عدة جمل في آخر الكتاب ، وهي في الصفحة ٤٩٥ ونصها : « وألزم الناس بالقيجور وزاد في قرار التمغات » وهي بعد قوله « ثم ضاعف الخراج كما فعل جمل الدين الدستجردائي » .

وسقط من الصفحة ٤٩٤ قول المؤرخ : « وأمر بإلزام أهـــل الذمة الغيار فألزموا بذلك مدة شهرين ثم أزيل » وهي بعد قوله : قوله : « وكان ببغداد فأحضر وقتل » .

وسقط منها أيضاً قول المؤرخ : « فتخاذلوا عنه » وهي بعد قوله « فأرسل الأمير قتلغ شاه اليهم يتهددهم ويخوفهم عاقبة الأمر » .

وسقط من الصفحة ٤٩٣ قوله : « من التفاوت فزادت أدعيتهم » بعد قوله : « فتوفر عليهم شيء كثير » . وسقط منها قوله : « وكل من يتعلق به من نائب وغيره » وذلك بعد قوله : « بقتل إخوة نوروز وأهله وأصحابه » .

وسقط من الصفحة ٤٩٢ قوله : « وكانت الرعية تسير بينهم ومعهم الأشياء المجلوبة للبيع فلا يأخذ أحد منهم شيئاً إلا ابتياعاً باللطف واللين ورأى الناس من العدل ما أوجب زيادة دعائهم لدوام دولته ، فلما دخل بغداد لم ينزل في دار إلا بأجرة وما أزعج أحد من منزله »

وذلك بعد قوله : « ولم يتعرض أحد من العسكر لأهل السواد بما جرت به العادة من رعي الزروع وغير ذلك » .

هذا وقد أجلنا الفكر وقلبنا الرأي وأعدنا تصفح هـــذا التاريخ مراراً فانتهينا إلى استحالة أن يكون هو « الحوادث الجامعـــة » لابن الفوطيّ ، وانبنت الاستحالة على الامور الآتية :

١ — أنّ خط ابن الفوطي الباقي المحفوظ في الجزءين المنشور عليها من كتابه «تلخيص معجم الألقاب » وفي الجزء الثاني من كامل ابن الأثير ، وكتاب الأحكام ، وغيرهنّ يخالف خط مؤلف كتاب « الحوادث » المذكور حق المخالفة وكل من الكتابين ثبت أنه كتب بخط مؤلفه . والذي دل على أن كتاب التاريخ المذكور بخط المؤلف هو أنه الصق قصاصة ورق على كل خبر وجد خيراً منه فأحله مكانه .

٢ — خفاء ذاتية مؤلف كتاب « الحوادث » بحيث يمكننا عدّه جامعاً لمواده من التواريخ الأخرى سوى إشارات قليلة جداً ، يجوز أن يكون بها المؤلف معاصراً لقسم من الحوادث ، مع ظهور ذاتية ابن الفوطيّ في كتابه « تلخيص معجم الألقاب [٢] » فلم يكن إذن مانع من ظهورها في كتاب التاريخ لوكان هو مؤلفه .

٣ — اختلاف أسلوبي المؤلفين في طريقه الاختصاص والنقل والأدلة على ذلك كثيرة جداً .

٤ — كون كتاب « الحوادث الجامعة » في الوفيات دون الحوادث كما جاء في ذيل طبقات الحنابلة وكشف الظنون ، مع أن كتاب « الحوادث » المطبوع يتوخى الحوادث قبل الوفيات .

٥ — ذكرُ مؤلف الحوادث مؤرخين اثنين من أساتذة ابن الفوطي ونقله من تواريخها

(١) الحوادث « ص ٢٥٢ ، ٢٥٨ » .

(٢) كقوله : « قلت ورأيت وسمعت وصديقنا ورفيقنا وشيخنا او المحسن الينا ومولانا وحدثنا وروى لنا وأخبرنا وحكى لنا وكتب الينا وأجاز لنا وما أشبه ذلك » .

كأنهما غريبان عنه وبعيدان عن عصره وهما تاج الدين أبو طالب علي بن انجب ابن الساعي وظهير الدين علي بن محمد الكازروني ، مع ان ابن الفوطي يصرح بأسمائهما دائماً في كتبه ، كما ترى في كتاب تلخيص معجم الألقاب .

٦ — عدم العاطفة الدينية الاسلامية على فاجعة المسلمين في كتاب « الحوادث » فهو لم يذكر كلمة « شهادة » ولا كلمة « استشهاد » في حادثة استيلاء هولاكو على بغداد سنة ٦٥٦ فما استحق منه كلمة (الشهادة) الخليفة المستعصم بالله ولا ابناه أحمد وعبدالرحمن ولا الأمراء ولا العلماء ولا الأطفال ولا النساء ، وكذلك من قتل بعدهم بسيوف المغول ، مع أن ابن الفوطيّ مع عيشه بين المغول مدة وخدمته لهم يذكر شهداء تلك الوقعة العظيمة ، والمجزرة البشرية الشنيعة ، بكلمة الشهادة أو الاستشهاد ، وذلك أمر ذو بال .

٧ — نقل مؤلف الحوادث عن جماعة لم ينقل عنهم ابن الفوطيّ ، فقد قال في حوادث سنة ٦٧٣ : « وفيها مات العلم [أي علم الدين] الشرمساحي أخو سراج الدين ، المالكيّ وهو مدرس المالكية بالمستنصرية ، قال ابن البديع [1] . وفيه يقول شيخنا [2] :

عليم الخنا لا الدين رأسك للنعل ... وليس لغير النعل رأسك بالأهل
تغرت بتدريس ولا تغر لامرئ ... بمنصبه إن كان خلواً من الفضل
وما منصب التدريس إلا غضاضة ... إذا ما احتبى فيه نظيرك للجهل
يصيب ولا يدري ويخطي وما درى ... كما جاء في تفضيل ذي المنطق الفصل

(١) جاء في تلخيص معجم الألقاب « عفيف الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن جعفر ، يعرف بابن البديع ، البغدادي الفقيه المجلد ، تكريتي الأصل ، كان من فقهاء المستنصرية من الطائفة الحنفية وسمع المشايخ وقرأ عليهم واستفاد منهم وكان أوحد في صناعة التجليد ولذلك كان لا يفارق دار الخلافة ، وقرأ على الشيخ رضي الدين الحسن بن محمد الصغاني ، وعلى الصاحب محي الدين استاذ الدار ابن الجوزي وسمع قاضي القضاة عماد الدين أبا صالح نصر بن عبد الرزاق بن عبد القادر ، وكان يتردد اليه ويجتمع به ، ورأيته كثيراً ، وكأنه كتب لي في الاجازة ، وقتل في الوقعة سنة ست وخمسين [وستمائة] » ، التلخيص ج ٤ ص ٩٦ من نسختي الأولى بخطي » فلعله هو المذكور في الخبر .

(٢) قدم مؤلف الحوادث ذكر شيخه على ما جاء في الصفحة ٣٨٢ وهو ابن نجاد .

ولو لا سراج الدين قلت مقالة يُسيرها الركبان في الحزن والسهل

وكان أخوه سراج الدين صديقاً لشيخنا ـ رحمهما الله تعالى ـ [1] » .

وقال ابن الفوطي في تلخيص معجم الألقاب : « علم الدين أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن ابن عمر الشرمساحي المصري المدرس ، قدم بغداد في خدمة أخيه سراج الدين الى تدريس المستنصرية ، وكانت وفاته سنة ثلاث وسبعين وستمائة ودفن عند أخيه [2] » .

٨ — نقل مؤلف الحوادث أخباراً عن غيره أو من كتب التاريخ خاصة بسنين ، كان ابن الفوطي قد سمع بعضها عن كتب وشهد بعضاً ، بحيث لا يحتاج إلى مؤرخ ينقلها عنه ، كمقتل فخر الدين مظفر بن الطراح بدار النيابة ببغداد سنة ٦٩٤ ، وقد ذكر مؤلف الحوادث ما نصه « وآخر ما قاله [مظفر بن الطراح] وهو في السجن بدار النيابة ببغداد قبل قتله بأيام ، ووجدت بخطه :

القول فيما مضى من عمرنا هدر فدعه واصبر لما يأتي به القدر [3] »

٩ — ذكر مؤلف الحوادث ذوي فضل وإحسان وشيوخاً وأصحاباً وأصدقاء وزملاء في العمل لابن الفوطي ، ولم يذكر في سيرهم أن له (أي للمؤلف) صلة بهم كائنة ما كانت ، وقد ذكرنا منهم ابن الساعي والسكاروني ونذكر منهم الخواجة نصير الدين الطوسي ، وكان له الفضل الأعظم على ابن الفوطي في السعي على خلاصه من الأسر وتعليمه وترتيبه في خزانة كتب الرصد ، وكذلك كان أبناؤه الثلاثة له ، ومؤلف « الحوادث » يذكر من يذكر منهم وكأنهم من رجال التاريخ حسب ، ولا صلة له بهم ، فاقرأ قوله في حوادث سنة ٦٥٨ قوله : « وفيها وضع نصير الدين الطوسي الرصد بمراغة وعين فيه جماعة يتولون عمله الى أن انتجز سنة اثنتين وسبعين [وستمائة] [4] » . وقوله فيها : « حكي أن السلطان لما كان بوطاة حران وقف له جمع من الفقراء القلندرية فقال لنصير الدين الطوسي [5] ... » وقوله في

(١) كتاب الحوادث « ص ٣٨٣ » .

(٢) التلخيص « ٤ : ٢٥ من نسختي الأولى بخطي .

(٣) الحوادث « ص ٤٨٥ » .

(٤) الحوادث « ص ٣٤١ » . (٥) المذكور « ص ٣٤٣ » .

حوادث سنة ٦٦١ « خيمة بها صاحب الديوان علاء الدين وخواجه نصير الدين الطوسي [١] ... » . وقال في حوادث سنة ٦٦٨ : « قيل إن خواجه نصير الدين الطوسي اجتمع [٢] ... » . وفي حوادث سنة ٦٧٢ : « فيها وصل السلطان أباقا خان الى بغداد وفي خدمته الأمراء والعساكر وخواجة نصيرالدين الطوسيّ ... وأما خواجة نصيرالدين الطوسي فانه أقام ببغداد وتصفح أحوال الوقوف وأدر أخباز الفقهاء والمدرسين والصوفية وأطلق المشاهرات وقرر القواعد في الوقف وأصلحها بعد اختلالها [٣] » ثم قال في حوادثها » : « وتوفي ... خواجه نصيرالدين أبو جعفر محمد بن الطوسي في ثامن عشر ذي الحجة ودفن في مشهد موسى بن جعفر [٤] ... » . وذكره في غير المواضع التي ذكرناها ، ولم يصحب ذكره لفظاً من ألفاظ الاحترام والتعظيم أو الأستاذية وما يجري مجراها . مع أن ابن الفوطي لايجرد اسمه من « السعيد » أو « المولى » أو غير ذلك كمولانا [٥] .

وذكر مؤلف الحوادث في وفيات سنة ٦٧٢ أيضاً عالماً ممن عرفهم ابن الفوطي قال : « وفيها توفي الشيخ كمال الدين علي بن وضاح الشهرابادي الحنبلي مدرس المجاهدية . ودفن تحت أقدام الامام أحمد بن حنبل ـ رحمهما الله ـ وكان شيخاً صالحاً زاهداً ورعاً عارفاً بالمذهب والأحاديث النبوية وله تصانيف كثيرة ، كان مولده سنة تسعين وخمسمائة [٦] » .

وذكره ابن الفوطي قال : « كمال الدين أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن وضاح الشهرابادي ثم البغدادي الفقيه المحدث المدرس ، ذكره شيخنا ظهير الدين علي بن محمد بن الكازروني في تاريخه وقال : كان شيخاً منور الوجه ، كيساً طيباً الاخلاق ، عارفاً بمذهب الامام أحمد ، وبالأحاديث النبوية [٧] ... كان مولده في رجب سنة تسعين وخمسمائة. وتوفي

(١) المذكور « ص ٣٥١ » . (٢) المذكور « ص ٣٦٥ » .

(٣) المذكور « ص ٣٧٧ » . (٤) المذكور « ص ٣٨٠ » .

(٥) قال في ترجمة عماد الدين الابهري : « ولما توجه مولانا السعيد نصير الدين الى بغداد » .

(٦) المذكور « ص ٣٠٦ » .

(٧) قال : « ومن تصانيفه الدليل الواضح الى اقتفاء نهج السلف الصالح ، وكتاب الرد على أهل الالحاد وكتاب مدح العلماء وذم الجهلاء » .

يوم الجمعة ثالث صفر سنة اثنتين وسبعين وستمائة ، اجتمع له عالم لايحصى وشدّ تابوته بالحبال وحمل على الأنامل الى مقبرة الامام أحمد ودفن تجاه قبره ، قلت : ولي منه إجازة ، وكان صديق والدي وقد رأيته قبيل الواقعة وترددت اليه في خدمة والدي ـ رح ـ وكتب الكثير بخطه الرائق من الكتب المطولة والمختصرة [1] » . فهل من حاجة لبيان البون البعيد بين الترجمتين وهو واضح مبين ؟ فان ذاتية ابن الفوطي ظاهرة فى ترجمته لابن وضاح وذاتية مؤلف الحوادث خافيـــة ، وكذلك القول في ذكر ابن الفوطي لعماد الدين الحسن بن محمد الأبهري المعروف بالزمهرير [2] ، قال : « عماد الدين أبو علي الحسن بن محمد بن الأبهري يعرف بالزمهرير شيخ رباط الخلاطيـــة ، كان ببغداد لما وقعت الواقعة ، وجرى ما جرى وحصل في جملة الأسرى من أصحاب أولجاي خاتون ، وأقام عندهم مديدة وقرر في أذهانهم أنه من أولاد المشايخ والصوفية ولما توجه مولانا السعيد نصير الدين الى بغداد تشفع وتضرع الى الخاتون وأصحابها في أن توليه مشيخة رباط الخلاطية ، فسألت نصير الدين ذلك فكتب بما أراده ونزل في خدمته سنة اثنتين وسبعين وستمائة ، ورتب شيخاً بالرباط وكتب له التعليقا فكان يعلقها فوق رأسه إذا جلس فوق سجادته ، وكان بارد اللهجة فسمي الزمهرير ، ولم يتمّ أمره ، وعاد الرباط الى شيخه شيخنا شمس الدين اليزدي والحمد لله ، وتوفي الزمهرير سنة ثمان [وسبعين وستمائة [3]] وسألته [عن مولده فقال ...] » .

ثم ترجمه ابن الفوطي باسم « محمد بن الحسن » قال : « عماد الدين محمد بن الحسن بن أحمد الأبهري ، يعرف بالزمهرير ، شيخ رباط الخلاطية ، قدم بغـــداد في صحبته مولانا نصير الدين أبي جعفر الطوسي وأحضر فرماناً من بعض الخواتين بتوليته رباط الخلاطية ، فلم يجد بداً من ذلك ورتبه شيخاً بالخلاطية سنة اثنتين وسبعين وستمائة ، وكان يلقب بالزمهرير ، وعزل الشيخ شمس الدين محمد بن سعد اليزدي ، واتفق بعد ذلك أن رتب الشيخ

(١) تلخيص معجم الألقاب « ج » الترجمة ٤٦١ من السكاف .
(٢) تلخيص معجم الألقاب « ٤ : ٩٩ ، ١١٩ » .
(٣) قدرت وعاته بذلك من قول المؤرخ « ولم يتم أمره » .

محيي الدين عبد القاهر بن السهروردي في مشيخة الخلاطية وحضره الأئمة والأكابر ، فقرأ الامام تاج الدين حسين إمام الحنابلة : لايرون فيها شمساً ولا زمهريرا [1] » .

فتأمل اضطراب كتابة ابن الفوطي ونسيانه أنه قد ترجم الرجل قبلاً باسم « الحسن بن محمد » وأن شمس الدين بن اليزدي تولى الرباط ثانية قبل محيي الدين بن السهروردي ، ودونك ما قال مؤلف كتاب « الحوادث » في أخبار سنة ٦٧٠ :

« وفيها أحضر عماد الدين محمد بن حسن الأبهري المعروف بالزمهرير ، تقـــدم بعض الخواتين [2] إلى خواجة نصيرالدين الطوسي [3] بمشيخة رباط الخلاطية ، فرتبه عوضاً عن شمس الدين بن اليزدي ، وكان شيخاً لم يخالط الصوفيـــة ، ولا عرف قواعدهم ولا تأدب بآدابهم ، وكان الناس يولعون به فقـال له يوماً شمس الدين الكوفي الواعظ : أنت وأنا لا نرى في الجنـة . فتأثر لذلك واغتاظ منه فقال له إن الله تعالى يقول : لايرون فيها شمساً ولا زمهريراً . ولم يزل شيخاً بالرباط الى سنة سبع وسبعين [وستمائة] ثم سافر وأعيد ابن اليزدي الى الرباط [4] » .

هذا آخر ما أردنا نشره من ترجمة ابن الفوطيّ ، وقد نشرنا موجز ترجمته في أول ما بقي من الجزء الرابع من كتابه البارع « تلخيص مجمع الآداب » وهو الذي حققناه لوزارة الثقافة والارشاد في الجمهورية العربية السـورية ونشرته بنفقاتها للعالم العربي في أربعة أقسام والله تعالى الموفق للصواب .

مصطفى جواد

(١) تلخيص معجم الالقاب « ٤ : ١١٩ » .

(٢) في المطبوع ـ ص ٣٨١ ـ « الخواقين » بدلا من « الخواتين » وهو من غلط الطبع .

(٣) قابل هذا القول بقول ابن الفوطي « ولما توجه مولانا السعيد نصيرالدين « وقوله » قدم بغداد في صحبة مولانا نصير الدين أبي جعفر الطوسي » ، لتعلم ما ذكرناه من اختلاف المؤلفين علماً يقينياً .

(٤) الحوادث « ص ٣٨١ » .